مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد الرابع – المجلد الثاني
يوليو 2018 م
ISSN: 2522- 3380

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

دراسة شعر بشار بين التأثير والتأثر

محمد عبد الله محمد[1] جمال الدين إبراهيم عبد الرحمن[1] إبراهيم عبد الله إبراهيم[2]
1 كلية التربية || جامعة نيالا || السودان
2 كلية التربية || جامعة الضعين || السودان

الملخص: تتجلى أهمية هذا الموضوع في أنه يتناول بالدراسة شعر بشار بين التأثير والتأثر؛ لكونه بحاجه إلى مزيد من الدراسة والتحليل لا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه المدارس النقدية. وتعتبر هذه الدراسة وقفة متأنية مع حياة بشار، وأثر العمى فيه، وإظهار قدرته في التشبيه الحسي والمعنوي بطريقة تفوق فيها على المبصرين.

تعتبر هذه الدراسة وقفة متأنية مع شعر بشار، ومدى تأثيره وتأثّره بالعوامل المحيطة به، نأمل أن يكون إضافة للمكتبة العربية، إذ أن الوقوف مثل هذه الوقفات يجدد الفهم لدراسة الأدب العربي ويثبت مفهومه في أذهان الدارسين.

نتائج البحث:

- نلحظ أثراً للعمى في مزاج بشار، وأثراً للرّق والفقر الذين مرّ بهما والده.
- أثّرت الشعوبية والزندقة تأثيراً كبيراً على مزاج بشار ونظمه.
- تأثر الأدب العباسي بشعر بشار لكونه إمام المولّدين، كما تأثّر الشاعر بعصره؛ لما امتاز به العصر العباسي من قوة الخلافة، وعظمة الخلفاء، ومجد الدولة، متأثّراً بالحضارات الأخرى.
- استفاد الشاعر من خروجه إلى البادية، كما استفاد من أهل الكلام في تقويم معجمه اللغويّ.
- زاوج الشاعر بين القديم والجديد في نظمه الشعري.

الكلمات المفتاحية: شعر، التأثير، التأثر، بشار.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد:

(دراسة شعر بشار بين التأثير والتأثر)، كان عنواناً لهذا البحث، الذي تلمسنا فيه بعض العوامل التي نحسب أنها أثّرت في حياة بشار بن برد، أولها- مولده من أبوين كانا ممن سباهم المهلب فهو مولى ابن مولى، هذا مما سبب له الضعة بين أقرانه.

أما الظواهر التي ظهرت في تلك الفترة، منها الزندقة التي حمل لواءها بشار- وكانت سبباً في موته- والشعوبية، كان لهما الأثر في شعره.

أهداف البحث:

1- دراسة التراث العربي دراسة نقدية حديثة.
2- تجديد مفهوم الأدب وتثبيته في أذهان الدارسين.
3- دراسة العوامل المؤثّرة في نَظْم بشّار.
4- تحديد اتجاهاته الأدبية.
5- بيان تأثيره في الشعر العباسي.

حدود البحث:

دراسة شعر بشار بين التأثير والتأثر.

منهج البحث:

تقتضي طبيعة البحث استخدام المنهج التاريخي، لتحديد ملامح الشخصية، وتتبع حياته وتوثيق آثاره العلمية، ثم المنهج الوصفي التحليلي، لرصد المادة العلمية وبعض أشعاره، واستنباط ما فيها من معانٍ جزلة وتحليلها، واستنباط النتائج منها.

الدراسات السابقة:

هناك عدة دراسات سابقة عن بشار وحياته، وبين الأعميين وعدد من المؤلفات حوت جل ما أوردناه، أثبتنا ذلك في مراجع هذا البحث.

تمهيد:

اسمه ونسبه:

"هو بشار بن برد بن يرجوخ بن أزدكرد بن شروستان بن بهمن بن دارا بن فيروز بن كرديه " [1]، و(كان أبوه ممن سباهم المهلب بن أبي صفرة فترة ولايته على خراسان (79- 81هـ). وقد وفد البصرة مع بعض الأسرى، وأقام بها مع زوجته وقيل إنها رومية، وقد ولد لهما بشار في العقد الأخير من القرن الأول للهجرة أعمى لا يبصر. وأن أباه كان طيانا يضرب اللبن، وكان له أخوان احترفا مهنة الجزارة) [2].

يكنى بشار أبا معاذ، ويلقب بالمرعِّث بفتح العين المشددة، وهو مشتق من رعثة الديك، وهي اللحمة الحمراء المتدلية تحت حنك الديك. وهو من جملة الشعراء الذين لقبوا بكلمات وقعت في أشعارهم [3].

محله في الشعر وتقدمه طبقات المحدثين فيه بإجماع الرواة ورياسته عليهم من غير اختلاف في ذلك. حضر مجالس واصل بن عطاء، واستمع إلى محاوراته مع من يعتنقون مذاهب الثنوية المجوسية والدهرية الهندية[4].

أما صفاته، كان بشار ضخماً، عظيم الخلق، مفرط الطول، عظيم الوجه أعمى أكمه جاحظ العينين، وكان يعد للعمى محاسن. وكان بشار سيئ الخلق، سريع الغضب، سريع الهجاء، مجاهراً بالسكر، وكان من خلقة محبة اللذات والتنعم، قوي الرد على من خالفه[5].

وكان لبشار مجلسان: مجلس يجلس فيه بالغداة يسميه (البِرَدان)، ومجلس يجلس فيه بالعَشي اسمه (الرقيق).

1- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المروانى، الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، ط1، 1929م، ج3، ص135

2- د.خليف – تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980م، ص 19.

3- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950م، ص7.

4- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين، الأغاني ص 135.

5- المرجع السابق ص12.

اعتقاد بشار شديد الصلة بقيمه وأدبه وشعره، وبشار ممن أخذ بأوفر حظ، لأن لاعتقاده أثر في حياته، فكان الرمي بالزندقة والإلحاد.

الشعوبية:

ظهرت في المجتمع العباسي ظواهر اجتماعية، كان لها الأثر الواضح في الأدب في العصر العباسي، منها الشعوبية: وهي تقوم على أساس مهاجمة العرب، والحطّ من شأنهم، ودورهم الحضاري في تاريخ الإنسانية، وتمجيد الحضارة الفارسية.

وهي ظاهرة اجتماعية شديدة الخطر على المجتمع الإسلامي، بل نحن في الحقيقة أمام انقلاب اجتماعي خطير، فبعد أن كان العرب أصحاب الصدارة والنفوذ في الدولة الأموية، انقلب الحال، فتراجعوا إلى الصفوف الخلفية، ليخلوا مكان الصدارة للموالي من الفرس، وكان من نتيجة ذلك أن شهد العصر العباسي حياة اجتماعية من لون جديد، اختلف اختلافاً واضحاً عما كانت عليه الحياة في العصر الأموي، فظهرت طائفة من النزاعات الاجتماعية، لم يكن للعصر الأموي عهد بها، أو على الأقل لم تكن ألوانها فيه واضحة، كما كانت في العصر العباسي6.

الزندقة:

اسم اشتقه العرب من كلمة زندو بالفارسية الدالة على كتاب الفرس المقدس، الذي يقال له بالفارسية (الزندوفستا)[7]، وهي تقوم على تفضيل الديانات الفارسية، من مانوية، وزرادشتية، ومزدكية على الإسلام- فهاجموا الإسلام، وعملوا على الكيد له، وراح بشار يجهر بهذا العداء، كقوله [8]:

إبليس أفضل من أبيكم آدم فتنبهوا يا معشر الفجارِ

النار معدنه وآدم طينة والطين لا يسمو سمو النارِ

ومع انتشار الجواري والقيان، ونتيجة للامتزاج الهائل بالحضارات المختلفة وأصحابها، من فرس، ترك، روم، وغيرهم، انتشرت نزعة اللهو والمجون- فكانت هذه النزعة تلقي في العصر العباسيّ خاصة وقوداً جزلاً يذكي أوارها، على نحو ما نجد في شعر أبي نواس وأمثاله.

وكان طبيعيّاً(والإسلام قوي في نفوس أصحابه) أن تكون نزعة الزهد ردّ فعلٍ طبيعيّ لتلك التيارات المنحرفة، فلم يكن المجتمع كله لهواً ومجوناً وانحرافاً، وإنما كانت فيه جوانب خير كثيرة، فكما كانت حانات بغداد والبصرة والكوفة، وبيوت القيان بها تغص بالمجان، والخلفاء والشّذّاذ الذين التفوا حول جواريها وغلمانها، يعيشون حياة لاهية إلى أقصى درجات اللهو ويستمتعون بمتعها وملذاتها إلى أبعد درجات الاستمتاع وكانت هذه المدن تكتظّ بالوعاظ، والعباد، والنساك، والزهاد الذين رفضوا الدنيا وزينتها، وانصرفوا عن زخرفها، وارتفعوا بنفوسهم إلى آفاق روحانية صافيه شفافة، تتدفق فيها ينابيع النور، وتختفي منها حجب الظلام. وفي كل حلقات هذه المساجد، وفي كل ركن من أركانها، وعاظ يذكّرون الناس بفناء الحياة وخلود الآخرة، وما ينتظر المتقين من ثواب وما ينتظر العاصين من عقاب[9].

6- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950 م.، ص18.

7- المرجع السابق، ص24.

8- المرجع السابق، ص24

9 د. يوسف خليف – تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980م، ص 19

ويجدر بنا- أيضاً- أن نشير إلى تلك النهضة العلمية، التي ازدهرت في هذا العصر، وازدهرت معها الحياة العقلية، بازدهار الترجمة، والتوسع في البحث العلمي على تنوع موضوعاته، وما لقيته هذه النهضة من تشجيع الخلفاء، علي نحو ما نعرف عن سيرة الرشيد والمأمون، كل ذلك بالإضافة إلى اقتناء الكتب وإنشاء المكتبات.

إن كل ألوان الثقافات العامة، التي كانت مبثوثة في البلدان المفتوحة، من أواسط آسيا إلى مشارف البرانس، تحولت إلى العربية دون حاجة إلى ترجمة منظمة، لسبب طبيعي وهو: أن شعوب هذه الثقافات تحوّلوا عرباً، فكان طبيعيّاً أن تتحول معهم ثقافتهم، وأن لا تنتظر حتى ينظّم لها النقل والترجمة وأهم هذه الثقافات حينئذ: الثقافة الهندية، الفارسية، واليونانية، وكانت الثقافة الهندية تصل العرب حينئذ عن طريقين، هما: طريق الفرس، وطريق عرب العراق [10].

في هذا المناخ الثقافي الجديد ازدهر الشعر العباسيّ، وساعد علي ذلك ما لقيه الشعراء من الخلفاء من جوائز حفزتهم علي صقل مواهبهم والتجويد في فنهم الشعري، فقد كان الشعراء العباسيين أهلَ أدبٍ وعلمٍ، كما أنّهم أهل سياسةٍ ونفوذٍ، وكانت لهم معرفة تامّة بالأدب وفنونه المختلفة، كما أنّهم يروون الشعر، وينتقدونه، ويستمعون إلى الشعراء ويجزلون لهم العطاء، ويثيرون بينهم نار التنافس والتسابق، وذلك بما يبينون من فاضلٍ ومفضول؛ ولذلك تزاحمت على أبوابهم أفواج الشعراء من أنحاء الأقطار والأمصار.

كان الخليفة المنصور له ذوقٌ في الشعر يفرق به بين الغثّ والسمين، فقد رُوِيَ عن الخليفة المنصور أنه قال للشعراء الذين أمام بابه[11]: من مدحني منكم فلا يصفني بالأسد فإنما هو كلب من الكلاب، ولا بالحية فإنما هي منتنة تأكل التراب، ولا بالجبل فإنما هو حجر أصم، ولا بالبحر فإنما هو مضطرب الأمواج . فمن ليس في شعره هذا فليدخل، ومن كان في شعره هذا فلينصرف، فانصرفوا كلهم إلا واحد منهم.

وهذا إن دلّ على شيء، إنما يدلّ على رغبة الخلفاء في الحصول على شعر يتسم بالجدّيّة، ومواكبة التطورات العصرية؛ فدفع ذلك الشعراء إلى البحث عن معانٍ ومضامين ومفاهيم وصفات جديدة . ولعلّ هذا من أهم مظاهر التطور في الشعر العباسي.

فإذا أضفنا إلى ذلك ما هيّأه اللغويون للشاعر العباسي من العلم بالشعر القديم، كما لم يتهيّأ لأصحابه أنفسهم من الجاهليين والإسلاميين، من ازدهار جعل هؤلاء الشعراء ينفذون إلي أسلوب جديد في الصياغة عرف باسم(أسلوب المولدين)، وهو أسلوب قام على عتاد من القديم وعدة من الذوق الحضري الجديد- أسلوب يحافظ علي مادة اللغة، ومقدماتها التصريفية والنحوية، ويلائم بينها وبين الحياة العباسية المتحضرة، بحيث تنفي عنه ألفاظ العامة المبتذلة، كما تنفي عنه ألفاظ البدو والألفاظ الحوشية.

أثر العمى في شخصية بشّار:

أثر العمى في شخصية بشار جعله يميل إلى الاعتداد بنفسه، وذلك لكي يرفع من قدر نفسه تعويضاً عن ذلك النقص، ويتضح ذلك من خلال سؤال ابنته له، حيث " قالت: يا أبتِ، مالك يعرفك الناس ولا تعرفهم؟ قال لها كذلك الأمير يا بنية "[12].

كما أنه كان شديد المفاخرة بفصاحته وشاعريته، أما من حيث الفصاحة فقد امتلك ناصية البيان، فقد حافظت البادية على نقاء لغته، فقد أقام في بادية البصرة مدة من الزمن حتى قويت سليقته العربية.

- 10 د. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط2، دار المعارف مصر، القاهرة ص 94.

11- أبو احمد عصام، بشار بن برد آخر القدماء وأول المحدثين، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط 1، 1979م، ص9.

12- المرجع السابق ص9.

كان بشّار يتميّز غيظاً كونه أعمى، وقد انعكس ذلك على سلوكه، فنجده متخبطاً في موالاته، فتارة يلوذ بالعرب، وتارة يلوذ بالفرس، ولقد ورد في الأغاني أنّه (كثير التلوّن في ولائه، شديد التعصب للعجم، ومن آثار العمى فيه، أنه صار شديد الهجاء سليط اللسان، وكان الناس يشكونه أول الأمر إلى أبيه حتى أنّ أباه قد ضاق من شكوى الناس، وكان يضربه ضرباً شديداً)13. وقد هجا بشّار كثيراً من معاصريه، وكانوا يفرقون في كثير من الأحيان خوفاً من لسانه، فقد كان يستخدم الهجاء كسلاح ضد الأعداء.

وقد تعددت تفسيرات النقاد لغلبة الهجاء على شعر بشار، وأجمعوا على أنّ العمى هو محركها الأساس، وهو الفن الذي وجد من خلاله نفسه وسعى به للنيل من خصومه، وكذلك ليدرك به حاجاته بعد أن طوّقه العمى، وجعله عاجزاً عن إدراك حاجاته؛ ولذلك كان هجاؤه أحياناً يُعَدُّ وسيلة للتكسّب، وأنّه كان يهجو من لا يعطيه، وكان هذا دأبه مع كل من يمتنع عن إعطائه، بل كان يهدد ممدوحه بأنّه إن أعطاه مدحه، وإن بخل عنه فلينتظر لسانه[14].

وكان لعمى بشار أثر في غزله، ومن المعروف أنه من الصعب على إنسان أعمى أن يتغزل أو يصف النساء؛ وذلك لأن الغزل يعتمد بالدرجة الأولى على النظر، ولكن من يقرأ شعر بشار يجد أنّ ذلك يسير عليه، وخاصة عندما يستغلّ عماه ويتخذه مطية للغزل، لأنّ الأذن تعشق قبل العين أحيانا.

ويقال إنّ لعماه أثراً في تهالكه على اللذة دون أي وازع ديني أو أخلاقي، فقد أورد صاحب الأغاني " أنّ جارية امتنعت عن بشّار، فمازال يرسل إليها رسولاً حتى استجابت له " 15. وتؤكد الأخبار أنّ بشّاراً كان ماجناً، عابثاً لا يهتم بالقيم الأخلاقية والدينية، وهذه الصفات جعلت كثيراً من الجواري يجتمعن حوله، مما دفع ذلك أهل الصلاح للخلاص من شعره. ويرى بعض النقاد أنّ بشّار هو الذي دفع الشعراء إلى التمادي في تصوير المتاع الحسّي حتى النشاز منه.

ولد بشّار أعمى فما نظر إلى الدنيا قط، ولكنه يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله؛ ولذلك " كان بشّار أقدر من غيره على التصرف في التشبيه، ولم يلتزم بالقوالب التي فرضها الموروث ودأب الشعراء على تداولها، ومن ثم ملّ سماعها النقاد والمتلقون حقاً "16.

نستنتج من أثر العمى في شعره وشخصيته، أن تهتك بشار ومجونه وزندقته وإقباله على الملذات واحترافه الهجاء، ما كان إلا تعبيراً عمّا ابتلي به من فقدان البصر، وقد كان لذلك انعكاس على شخصيته، وموضوعاته الشعرية والفنية.

ويمكن أن نقول: إنّ بشّاراً اعتمد التصوير الحسي الذهني وقد تفوق التصوير الحسي على الذهنيّ تفوّقاً نسبيّاً، وذلك بالاعتماد على الحواس الخمس التي طوّر انتفاعه بها لإدراك العالم الخارجي نتيجة فقده لحاسة البصر، ولقد كان لعاهة العمى في شعر بشار أثر لا ينكر في تفكيره وأسلوب صوره ومعانيه، فقد أرغمه فقدان البصر على الاعتماد على التفكير والذهن رغبة في مجاراة المبصرين ونصرة على شعور النقص، وقد أثّر العمى في نفسه فدفعه إلى التفلت والإباحية والهجاء.

13- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين، الأغاني(مرجع سابق)، ج3، ص139.

14- محمد احمد علي، قضايا الفن في الشعر العباسي، نشر الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق 2010 م، ص24.

15- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين، الأغاني(مرجع سابق)، ج3، ص164.

16- الصفدي، صلاح الدين، نكت الهميان في نكت العميان، ط1، 1911م، ص84.

وقد وجهت آفة العمى حياة بشار منذ صغره، فاتجه إلى المساجد وإلى مربد البصرة حيث مجالس العلماء والأدباء- ولأنّ بشّاراً نشأ في موالي بني عقيل، فقد أتقن العربية، ولم يكد يبلغ العاشرة حتى أخذ ينبوع الشعر يسيل على لسانه.

وأغلب الظَّنّ أنّ نشأة بشّار فقيراً، بل مولى يشعر بعمق أنّه مولى ابن مولى، في أسرة مختلفة، إلى جانب ضيقه بآفة فقد البصر، كل ذلك مع حدة مزاجه الفارسي قد وَلّدَ في نفسه ميلاً إلى العدوان، جعله منذ صغره يتجه إلى الهجاء والزندقة ذلك الذي لقي به حتفه فيما بعد؛ كما جعله يندفع اندفاعاً شديداً إلى المتع الحسية، فإذا أضفنا إلى هذه المكونات الشخصية، والجنسية مكون البيئة، وما كانت تغصّ به من دور الرقيق، والجواري، والإماء، وجدناه في غزله وخمره يعبر تعبيراً متجاوزاً في صراحته حد الخلق، لذلك ضاق به وعاظ البصرة وعلماء الدين بها ورأوه يشكل خطراً علي المجتمع؛ فقاوموه مقاومة شديدة، انتهت به إلى أن قتله المهدي على زندقته وفسقه وإساءته.

وقد كان بشّار يخالط علماء الكلام، فكان يصحب وائل بن عطاء مؤسس مذهب المعتزلة، وأعده ذلك لأن يتصل بآراء الزنادقة التي تجرد وَاصِلُ وغيره من المتكلمين للردّ عليها. وهذه أبيات من رائية غزلية يتمثل فيها أسلوبه المولد الجديد، كما نرى فيها أثر الحضارة علي شعره. يقول بشار [17]:

يا لَيلَتي تَزدادُ نُكرا ... مِن حُبِّ مَن أَحبَبتُ بِكرا
حَوراءُ إِن نَظَرَت إِلَيكَ ... سَقَتكَ بِالعَينَينِ خَمرا
وَكَأَنَّ رَجعَ حَديثِه ... قِطَعُ الرِياضِ كُسينَ زَهرا
وَكَأَنَّ تَحتَ لِسانِها ... هاروتَ يَنفُثُ فيهِ سِحرا
وَتَخالُ ما جَمَعَت ... عَلَيه ثِيابَها ذَهَباً وَعِطرا
وَكَأَنَّها بَردُ الشَرابِ ... صَفا وَوافَقَ مِنكَ فِطرا
جنية إنسية أو بين ... ذلك أجلّ أمرا

ونلمح في هذه القطعة أثر فقد بشار لبصره، فإنّه لا يكاد يرتفع عن نطاق الشم واللمس والحس، فهو يصف أنفاس صاحبته وما تنشره من طيب كطيب الرياض، ويصف حديثها وما تذيع فيه من سحر، ويصور جسدها ذهباً وعطراً، أما ما ينعم به من جمالها فشراب بارد سلسبيل صادف صائماً يتحرق عطشاً.

وقلّما ارتفع بشار في غزله عن الحسّ والسمع والأذن، وقد أعلن ذلك كثيراً في شعره، محاولاً أن يعتذر عن فقده لمتعة الجمال متعةً حقيقيةً بالبصر، فراح يردد في أشعاره أنه يستبدل بالسمع ما يدركه الناس بالعين فيعشق الجمال من خلال أذنيه، وما يستمعانه من صوت جميل، يقول [18]:

يا قَومِ أَذْني لِبَعضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ ... وَالأُذنُ تَعشَقُ قَبلَ العَينِ أَحيانا
قالوا بِمَن لا تَرى تَهذي فَقُلتُ لَهُم ... الأُذنُ كَالعَينِ تُؤتي القَلبَ ما كانا

أثر علماء المتكلمين عليه:

وأكبر الظنّ أنّه تسرب إليه من هذه المجالس وما يماثلها من مجالس المتكلمين شيء من الفلسفة والمنطق، ولا نصل إلى سنة 126 للهجرة حتى يفسد ما بينه وبين واصل لما أظهره من زندقة، وأباح واصل دمه بعد أن جاهر

17- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950 م.، ص32

18- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950 م.، ص31

بشار بإلحاده، وقال برجعة الإمام، وتكفير الأمة، وتفضيله إبليس على بني آدم في مثل ما ذكرنا وفي قول بشار يشيد بعبادة النار[19]:

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار

أثر الثقافة العربية في شعر بشار:

وربما كانت أهم ثقافة أثّرت في شعره هي الثقافة العربية التي هيّأته للتفوّق في فن الشعر، وساعدته في ذلك نشأته اللغوية، وخروجه للبادية يقيم فيها ويأخذ اللغة من ينابيعها الأصلية، وكانت لبشار من هذا وغيره خبرة دقيقة بالشعر العربي، فكان يميز تمييزاً دقيقاً بين ألوان الأساليب، ويروي أنه أنشد خلفاً الأحمر قصيدته في سلم بن قتيبة [20]:

بكراً صاحبي قبل الهجير إن ذاك النجاح في التبكير

فلاحظ خلف، وهو من رواة الشعر العربي، في هذه القصيدة إكثاراً من الغريب، وسأله عن سبب ذلك " فقال له: بلغني أن سلماً يتباصر بالغريب، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرفه، وقال له خلف: لوقلت مكان (إن ذاك النجاح في التبكير)، (بكراً فالنجاح في التبكير) كان أحسن فأجابه بشار: " إني بنيتها أعرابية وحشية فقلت: (إن ذاك النجاح) كما يقول الأعراب البدويون، ولو قلت (بكرا فالنجاح) كان هذا من كلام المولدين، ولا يشبه ذلك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة، فقام خلف فقبل بين عينيه " [21].

وهذا يعني فهم بشار الدقيق لأسرار التراكيب في الجملة العربية، وقد نزدري أخلاق بشار، وانحراف طباعه ومزاجه، وقد نضيق بفسقه وزندقته ومجاوزته حدود الدين والخلق، وقد نكره مجونه وفساده الخلقي، ولكننا لا نستطيع أن ننكر مكانته الشعرية بوصفة خاتمة الشعراء الأمويين التقليديين، وبداية المجددين العباسيين، فهو الذي نهج للعباسيين طريقتهم الجديدة، وهي طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً علي الأصول التقليدية للشعر القديم، حتى لتبدو فيه نزعة محافظة وخاصة في مدائحه- في الإطار القديم- إلا قليلاً، إذ يستوفي لقصيدته قيم التعبير الجزلة، وكل ما تقضيه الجزالة من رصانة القول وقوة البناء.

ونراه يزاوج بين الماضي والحاضر يصف الأطلال والصحراء ولكن بذوقٍ حضريٍّ جديد، فيه رقة، وفيه دقة في استنباط المعاني وتوليدها، لأنه ربيب لغة المتكلمين، وقد أخذ عنهم قدرتهم في بسط الأدلة وتفصيل الأفكار وتفريعها وتشعيب المعاني وتشقيقها، كما أخذ عن الفرس أمثالهم وحكمهم، وتحول إلى معاني الشعر الجاهلي، يستخرج منها ما لا يحصى من الخواطر، ويستطيع أن يتبين ذلك كل من يقرأ مديحه، فنسيجه العام قديم، ولكنّ خيوطاً كثيرة جديدة تلمع في هذا النسيج، حتى في نماذجه الموظفة في التشبه بالبدو (ونقصد الأراجيز) فنراه يعبر تعبيراً جديداً في أرجوزته- بمثل قوله متغزلاً:

صدت بخد وجلت عن خد ثم اثنت كالنفس المرتد

ونراه يدخل في نسيجها الحكمة:

الحر يلحى والعصا للعبد وليس للملحف مثل الرد [22]

19- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، مرجع سابق، ص24

20- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، مرجع سابق ص48.

21- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين، الأغاني(مرجع سابق)، ج 3، ص155

22- د. شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة الحادية عشرة، دار المعارف بمصر1960م، ص 152- 153..

وهذه أبيات من بائيته في مديح بعض الأمويين، وهي مما يمتزج فيها القديم بالجديد، أما بائية بشار التي يحتفظ بها ديوانه فمطلعها [23]:

جَفا وِدُّهُ فَازوَرَّ أَو مَلَّ صاحِبُه ... وَأَزرى بِهِ أَن لا يَزالَ يُعاتِبُه
خَليلَيَّ لا تَستَنكِرا لَوعَةَ الهَوى ... وَلا سَلوَةَ المَحزونِ شَطَّت حَبائِبُه
شَفى النَفسَ ما يَلقى بِعَبدَةَ عَينُهُ ... وَما كانَ يَلقى قَلبُهُ وَطَبائِبُه
فَأَقصَرَ عِرزامُ الفُؤادِ وَإِنَّما ... يَميلُ بِهِ مَسُّ الهَوى فَيُطالِبُه
إِذا كانَ ذَوّاقاً أَخوكَ مِنَ الهَوى ... مُوَجَّهَةً في كُلِّ أَوبٍ رَكائِبُه
فَخَلِّ لَهُ وَجهَ الفِراقِ وَلا تَكُن ... مَطِيَّةَ رَحّالٍ كَثيرٍ مَذاهِبُه
أَخوكَ الَّذي إِن رِبتَهُ قالَ إِنَّما ... أَرَبتُ وَإِن عاتَبتَهُ لانَ جانِبُه
إِذا كُنتَ في كُلِّ الذُنوبِ مُعاتِباً ... صَديقَكَ لَم تَلقَ الَّذي لا تُعاتِبُه
فَعِش واحِداً أَو صِل أَخاكَ فَإِنَّهُ ... مُفارِقُ ذَنبٍ مَرَّةً وَمُجانِبُه
إِذا أَنتَ لَم تَشرَب مِراراً على لقذى ... ظَمِئتَ وَأَيُّ الناسِ تَصفو مَشارِبُه

قيل إنّ بشاراً أنشد بائيته في مدح عمر بن هبيرة، وقيل إنه مدح بها مروان بن محمد، وواضح أنه لم يطل استهلاله بالنسيب وسرعان ما عرج على الحكمة إذ تحدث عن الصداقة والصديق، متأثراً بما كتبة ابن المقفع في كتابه الحكمة (الأدب الكبير)، ومستلهماً علماء الكلام في قوة الحجة والبرهان، وبشار بذلك لايحذو حذو القدماء فيطابق النموذج القديم تمام المطابقة، بل نراه يدخل في القصيدة خيوطاً جديدة على نحو ما أشرنا.

ونمضي معه في وصف مشاهد الصحراء وصفاً حيّاً، حتى إذا انتهى منه فخر بقيس مواليه وما يذيقون به أعداءهم من بأسهم الشديد حتى ليقضون عليهم نكالاً بهم، يقول بشّار [24]:

إِذا المَلِكُ الجَبّارُ صَعَّرَ خَدَّه ... مَشَينا إِلَيهِ بِالسُيوفِ نُعاتِبُه
وَكُنّا إِذا دَبَّ العَدُوُّ لِسُخطِنا ... وَراقَبَنا في ظاهِرٍ لا نُراقِبُه
رَكِبنا لَهُ جَهراً بِكُلِّ مُثَقَّفٍ ... وَأَبيَضَ تَستَسقي الدِماءَ مَضارِبُه
وَجَيشٍ كَجُنحِ اللَيلِ يَرجُفُ بِالحَصى ... وَبِالشَولِ وَالخَطِّيِّ حُمرٌ ثَعالِبُه
غَدَونا لَهُ وَالشَمسُ في خِدرِ أُمها ... تطالعنا وَالطَلُّ لَم يَجرِ ذائِبُه
بِضَربٍ يَذوقُ المَوتَ مَن ذاقَ طَعمَهُ ... وَتُدرِكُ مَن نَجّى الفِرارُ مَثالِبُه
كَأَنَّ مُثارَ النَقعِ فَوقَ رُءوسِهِم ... وَأَسيافَنا لَيلٌ تَهاوى كَواكِبُه
بَعَثنا لَهُم مَوتَ الفُجاءَةِ إِنَّنا ... بَنو المُلكِ خَفّاقٌ عَلَينا سَبائِبُه

الفخر بالبلاء في الحروب قديم، غير أنّ جديداً واضحاً يدخل معاني هذه الأبيات، وهو يُرَدُّ من بعض الوجوه إلى مزاج بشار الفارسي، الذي أدي به إلى المبالغة ومجاوزة القصد، الذي يعد من مميزات الطبع العربي الخالص، كما يردّ إلى محاولة الإبداع في التصوير.

ويروي أن الأصمعيّ (وقف مستعجباً إزاء البيت السابع من الأبيات السابقة وأنه قال: (ولد بشار أعمي، فما نظر إلى الدنيا قط، وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله)[25].

23- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار، مرجع سابق، ص 305.

24- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر 1369هـ- 1950 م.، ص41

25- الصفدي، صلاح الدين، نكت الهميان، في نكت العميان، ط1، 1911م، ص84.

وكان يعتمد في ذلك على ذكاء حاد، جعله يستغل ذاكرته من صور الأقدمين وأخيلتهم استغلالاً فاق فيه المبصرين من حوله مستعيناً بحسٍّ دقيق قد دفعه إلى ذلك شعوره بفقده لبصره، وكأنه كان يريد أن يثبت- على الرغم من آفته- أنّه يستطيع أن يؤلف الصور الحسية، بل ويبدع في تأليفها- ويضرب القدماء لتلك البراعة مثالاً: أنه مازال يدير في نفسه بيت امرئ القيس ووصفه بالعقاب:

كَأَنَّ قُلوبَ الطَيرِ رَطباً وَيابِساً لَدى وَكرِها العُنّابُ وَالحَشَفُ البالي[26]

و قال في المديح:

كَأَنَّ مُثارَ النَقعِ فَوقَ رُؤُسِهِم وأَسيافَنا لَيلٌ تَهاوى كَواكِبُه

على أنّ من يمعن النظر في صوره، يلاحظ عجزه عن تمثل الدقائق التي لا تري إلا بحاسة البصر.

وفاة بشار بن برد:

مات بشار بن برد مقتولاً في زمن الخليفة المهدي، إذ كان من الخلفاء الذين لا يتساهلون في أمور العقيدة والتشكيك فيها، فأمر الخليفة المهدي جنوده بشن حملة على الزنادقة، وكان من ضمنهم الشاعر بشار بن برد، وذلك بسبب الضغائن التي حملها عليه، بعد وشاية الناقمين على بشار وهجائه للخليفة المهدي، إذ جاء يوم وكان بشار فيه سكران فاندفع يؤذن قبل موعد الصلاة، فغضب المهدي من ذلك وأمر بضربه بالسوط، فضُرب سبعين مرة حتى مات، ودُفن بالبصرة.

الخاتمة:

لقد تميزت أشعاره بالمزج ما بين القديم والحديث، مما أضاف بعداً آخر للعوامل المختلفة التي ظهرت في العصر العباسي.

الشعوبية ظاهرة اجتماعية جديدة في العصر العباسي مثلت خطراً على المجتمع العربي، وتُعَدُّ انقلاباً اجتماعيّاً خطيراً، فبعد أن كان العرب أصحاب الصدارة والنفوذ في الدولة الأموية، انقلب الحال فتراجعوا إلى الصفوف الخلفية.

امتزجت الحضارة العربية بالحضارات المختلفة منها الحضارة الفارسية والحضارة التركية، والرومية، وغيرها، فانتشرت نزعة اللهو والمجون والتي نحسب أنها ظاهرة طبيعية في حينها.

أما عن أثر العمى، فلقد وجهت آفة العمى حياة بشار منذ صغره، وألقت ظلالاً على شعره.

لا بد لنا أن نشير في ختام هذا البحث إلى تعدد الآراء وتضاربها حول بشار وشعره- فبعضهم بالغ في تقديره والدفاع عنه شأنه في ذلك شأن المتعصب لشعوبيته، أو خوفاً من لسانه، وبعضهم الآخر توجه بالنقد إلى شعره، ومنهم إبراهيم الموصلي، الذي يرى أن بشاراً كثير الخلط في شعره، وأنه كان يحشو شعره إذا أعجزته القافية والمعنى، بالأشياء التي لا حقيقة لها.

26- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، ص41

النتائج:

يعتبر بشار بن برد، من الشعراء المجدِّدين في العصر العباسي، حيث تميز شعره بمجموعة من السمات، فقد تميزت أشعاره بالمزج بين القديم والحديث، والبداوة والحضارة، والحكمة.. وهناك مجموعة عوامل تأثر بها بشار وأثرت في شعرة كالزندقة، والشعوبية، والفقر، والعمى.

التوصيات:

إعادة دراسة الأدب العربي القديم، بصورة تتماشى مع الحداثة وتطور العصر.

المصادر والمراجع:

1- ابن سلام، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي أبو عبد الله، طبقات فحول الشعراء، ط2، القاهرة، بدون تاريخ.

2- أبو الفرج الأصفهاني، على بن الحسين بن محمد بن أحمد بن الهيثم المروانى، الأغاني، دار الكتب المصرية القاهرة، ط 1، 1929 م

3- أبو أحمد عصام، بشار بن برد آخر القدماء وأول المحدثين، دار الإرشاد للطباعة والنشر، ط 1، 1979 م

4- الجاحظ، عمر بن بحر بن محبوب الكتاني الليثي أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هرون، ط5، 1985.

5- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، الطبعة الثامنة، دار المعارف مصر، القاهرة، 1966م.

6- شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، الطبعة الحادية عشرة، دار المعارف بمصر1960م.

7- الصفدي، صلاح الدين، نكت الهميان في نكت العميان، ط1، 1911م.

8- طه حسين، حديث الأربعاء، الهيئة المصرية العامة، مكتبة الأسرة، القاهرة طبعة 1997م

9- محمد الطاهر بن عاشور، ديوان بشار بن برد، القاهرة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر1369هـ، 1950 م.

10- محمد أحمد علي، قضايا الفن في الشعر العباسي، نشر الهيئة السورية العامة للكتاب 2010 م.

11- يوسف خليف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1980م.

Study The poetry of Bashar between influence and being influenced

Abstract: The importance of this subject is reflected in the fact that it deals with the poetry of Bashar between influence and being influenced, because he needed more study and analysis at this time where there are many critical schools. The study dealt with: the poet's relation and his birth, the effect of blindness, his ties with the isolationism,(Mu'tazila) populism, which paved the way to his death by the Caliph Almahdi.

This research is considered to be a deep study to the poetry of Bashar, and the extent of its impact , in addition to his being influenced by the surrounding factors. We can discover that the poet has shown his ability in sensory and moral analogy in a way that surpasses the free eyes owners

Research results:

- The impact of blindness in Bashar's mood, and the slavery that his father has experienced are quite visible.
- Populism and heresy have deeply influenced Bashar's mood and poetry.
- The Abbasid literature was influenced by Bashar's poetry because he was the leader of the none pure Arab poets, but influenced by the Abbasid era, which was distinguished for the power of the Caliphate, the great caliphs, and the glory of the state, influenced by other civilizations.
- The poet has benefited from his life in the Badia (rural areas), and also benefited from the lords of speech in his linguistic dictionary.
- The poet intertwined the old and the new in his poetry.

Key words: poetry- Basher – influence- being influenced